ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ
مجلد: 13 عدد: 01 جوان 2018
ص.ص. 67- 87
هل يمكن الحديث عن حرب عادلة؟

هل يمكن الحديث عن حرب عادلة؟

أ. بشير خليفي[1]، الطالبة الدكتورالية عشاب فطيمة الزهرة[2]،

1ـ مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر.
bachir.khelifi@univ-mascara.dz
2ـ كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة د. مولاي طاهر، سعيدة.
achaphilisphe88@gmail.com
تاريخ الإرسال: 16/ 04/ 2017؛ تاريخ القبول:21/ 03/ 2018

Can we talk about a just war?

Abstract: The purpose of this research paper is to investigate the justifications offered by the proponents of the fair war. This new concept is based on the purpose of fighting against the forces of pure evil. Since ancient times, scholars have tried to understand the phenomenon of war, they also thought about the means and conditions to avoid it by glorifying the values of tolerance and dialogue between individuals and societies. This article begins by the attempt to define the fair war. It refers to the problematical debate between supporters and opponents of this new concept, taking into consideration the deep interest to answer the central problematic resumedin the title: Is it possible to talk about a fair war.?

Keywords: War; Justice; Good; Evil; Globalization.

ملخص :تهدف هذه الورقة البحثية إلى تقفي واستقصاء جملة المبررات التي يقدمها أنصار الحرب العادلة بوصفها مفهوما دخل المجال التداولي القيمي بجملة من المصوغات أهمها محاربة قوى الشر المحض. لقد عمد المفكرون منذ العصور الغابرة إلى محاولة فهم ظاهرة الحرب والسعي لتلافيها عبر تمجيد قيم التسامح والحوار زيادة على الدعوة لتجنب أسبابها. يبدأ هذا المقال بمحاولة

لتعريف الحرب العادلة، ثم التركيز على مبررات دعاتها وخلفياتهم المعرفية وكذا أهم الانتقادات الموجهة لهم، مع سعي حثيث للإجابة عن الإشكال المركزي الذي يحيل إليها لعنوان : هل يمكن الحديث عن حرب عادلة؟ علما أن قصد إمكانية الحديث في الإشكالية يرتبط بالتصور والفعل. ليصل البحث في نهاية المطاف إلى نتيجة رئيسة مفادها ارتباط مبررات ما يسمى بالحرب العادلة بحيازة القوة، قوة السلاح والاقتصاد والإعلام.

كلمات مفتاحية :الحرب؛ العدل؛ الخير؛ الشر؛ عولمة.

مقدمة:

عادة ما يرتبط الفعل الفلسفي عبر حركية إبداعية بالاشتغال بمنظومة المفاهيم، وهو الأمر الذي اتجه إليه الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز Gilles *Deleuze* وكذا مواطنه جيل غاستون غرانجي *Gilles-Gaston Granger* في اعتبار الفلسفة ومن ثمة التفلسف عمل مفاهيمي بامتياز، فيصير التفلسف مقرونا بالاشتغال المفاهيمي مما يعطي لفلسفة اللغة حضورها الأبرز. ومن بين هذه المفاهيم المستحدثة مفهوم الحرب العادلة، بوصفه مفهوما مثيرا ضمن مفارقة الجمع بين الحرب والعدل، وبشكل عام جملة القرائن والمبررات التي تشرعن وتبرر العنف، فيصبح الحديث عن العنف المشروع أمرا واقعا تبرره صياغات وسياقات.

مفهوم الحرب العادلة:

شغلت الحرب والسلم ومن ثمة أخلاق الحرب والسلم اهتمام العلماء والفلاسفة منذ أمد طويل، خصوصا أمام ملاحظة تعذر انتشار السلم

الدائم، وبمقابل سهولة اندلاع الحروب وانتشار الفتن والقلاقل، وفي حالة معينة تصبح الحرب الحل الوحيد الذي لا سبيل لتلافيه، لذلك أصبح من الواجب التفكير نظريا في مقام أول في أخلقة الحرب بمعنى السعي الحثيث لتأطير الحرب– في حالة اندلاعها- بقواعد أخلاقية لتكون حربا عادلة إن صح القول، وهو الأمر الذي عمد إلى البحث في مضامينه وتجلياته عدد من الفلاسفة على غرار سانت أوغسطين *St. Augustine* (354– 430) إذ يبدو أن الهدف لا يتباعد عن محاولة تحقيق الانسجام والمواءمة بين اتجاه السلم ونزوع الحرب، مما أدى إلى نشأة ما أصبح يعرف بنظرية الحرب العادلة Just War Theory بوصفها تصورا ونزوعا قائما على تبرير العنف الحاصل في الحروب ليصبح عنفا مشروعا قائما على أسس وضوابط أخلاقية. «لذلك سادت في التقليد الفكري للحرب العادلة الفكرة التي مؤداها أن استخدام الدولة للعنف للحفاظ على حقوقها يعد مشروعا شريطة أن تكون الأهداف عادلة وتخضع الوسائل التي تستخدم في الحرب لتقيدات معينة.» (حمدي، ش. 2016: 03).

ضمن هذا السياق، يبدو أنه من الملاحظ والمتداول بحسب هذه المرجعيات الفكرية أن قيام الحرب أمر لا مفر منه في ضوء ما تمليه الظروف ويحدده السياق. وبالمقابل قد تكون المبررات الأخلاقية ذريعة لأسباب نفعية وإجرائية، حيث يختفي وراء هذا الافتعال الغرض الحقيقي المتمثل في تحقيق مكاسب ولعل أوضحها تصريف مخزون الأسلحة وبيعه بملايين الدولارات فيصير الأمر تجارة رابحة، كما أنها قد تؤدي إلى حالة الاستقطاب بخلق أشكال متعددة من النزاعات الملأى بالتوجهات المثقلة بالحمولات الفكرية والمواقف

المؤدلجة والموجهة.المفضية لأنماط عديدة من التطرفات. وفي الوقت نفسه تفضي لحركية مختلفة تطالب وتناشد الدفاع عن كل ما هو سلمي تماهيا مع طوباوية مأمولة تنأى عن كل ما من شأنه أن يؤجج الصراع ويزيد من حدة النزاع.

ومن خلال التعمق في المرجعية التاريخية لنظرية الحرب العادلة يتبدى أنها ذات أصول قديمة، تعود إلى أطروحات بعض اليونانيين الذين أقروا بأن مشروعية الحرب تكمن في شرعيتها، يبرز ذلك في الحروب التي شنوها ضد البرابرة (الذين لا ينتمون إلى العرق اليوناني) حيث كانت عادلة ومبررة على الدوام. (فرنز، ف. 1980: 93). وهو التصور الذي ينسجم مع رؤية «فيكتور فرنز الذي أقر بوجود ثلاثة أسباب مشروعة للحرب ممثلة في تدفق الأعداء عبر الحدود، استعادة الأملاك، والانتقام من المظالم. (فرنز، ف. 1980: 94).

ومما تجدر الإشارة إليه ضمن هذا الإطار ارتباط المسوغ العام للحرب العادلة بكل ما من شأنه أن يهدد السلامة والأمن للدولة والأفراد، وعلى سبيل المثال أقر نيكولا ميكيافيلي *Niccolo Machiavelli* (1469-1527) بأن عدالة أي حرب تكمن في ضرورتها التي تتمحور في الدفاع عن الوطن، الأمر الذي ينسجم مع تصور شارل مونتسكيو Charles de *Montesquieu* (1689-1755) في ضوء ربطه بين شرعية الحرب من جهة وضرورتها وعدالتها من زاوية أخرى، وفي السياق نفسه يشير الفيلسوف برتراند راسل Bertrand *Russell* (1872- 1970) إلى أن الحرب العادلة تقتضي شرطان،

يحيل الأول إلى الحروب ذات المبرر القانوني الصالح، بالمقابل يرتبط الشرط الثاني بضرورة الحرب التي ينبغي أن تنفع أكثر مما تضر. (خليل، ر. 2015: 52).

لقد أصبحت الحرب العادلة من خلال مفهومها وتمظهراتها تشكل موضوعا بالغ الأهمية خصوصا للباحثين المشتغلين بالفكر السياسي، تدفعهم في ذلك رغبة ملحاحة لفهم الظاهرة وأسبابها، وكذا تحليل وتفكيك مبراراتها، وهي حالة عسيرة يتشابك فيها الذاتي بالموضوعي، الأخلاقي بالمنفعي، العلمي بالايديولوجي، خصوصا وأن الأمر يتعلق بحرب لها تداعياتها وأضرارها الخطيرة التي تمس أبرياء ليس لهم أدنى مسؤولية في قرار اندلاعها أو توقيفها، فيظهر الأمر على أنه ممارسة للتضليل والتمويه في نهاية المطاف خصوصا أمام إمكانية الحلول السلمية، في هذا الإطار يقول ماو تسي تونغ Mao *Tse-tung* (1893- 1976): «يظهر لنا تاريخ الحروب بشكل واضح أن هناك مجموعتين من الحروب: حروب عادلة وحروب غير عادلة، في حين تعتبر كل حرب تعترض سبيل التقدم بمثابة حرب غير شرعية وغير عادلة.» (العسلي، ب. 1979: 41).

ضمن هذا السياق، يبدو أن ماو تسي تونغ في لا منطوقه قد ميز بين حرب غير عادلة تفضي للخراب وأخرى عادلة يكون هدفها التقدم، إذ لا معنى للحرب إن لم تحقق نتائج ايجابية من جراء قيامها، وهذا ما لا يمكن حدوثه إلا ضمن إطار العدل بوصفه شرطا للتقدم، ومن ثمة تفهم كأنها «تراجع خصب،» نستعير هنا مصطلح السوسيولوجي والمؤرخ الجزائري هواري عدي.

«والواقع أن أن مفهوم الحرب العادلة ومختلف المفاهيم المرتبطة بها أضحت جزءا من الكلمات المستخدمة في مناقشة مسائل الحرب، دون أن يعني ذلك إحالة للجدة، إذ يعود الأمر إلى تصور ازدهر في الفترة الوسيطية،

ثم بلغ ذروته بعد ذلك في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وصولا إلى فترة جديدة لانبعاثه عبر إعادة اكتشافه وإحيائه في النصف الثاني من القرن العشرين.» (فيشر، د. 2014: 18-19). ضمن هذا الإطار يكاد يتفق الدارسون لقضية الحرب أنها باتت من القضايا المثيرة والمهمة، فارتباطها الفعلي بالجانب الأخلاقي هو ما يمنحها هذا الاهتمام المتزايد، وعلى الرغم من عدم جدة الأمر إلا أن ما يشكل أحد الرهانات الأساسية ويبعث على رسم دعائم الدهشة والحيرة بمعناها الفلسفي هو ارتباط الحرب بمفهوم العدل، بما لا ينسجم مع المدلولات المفاهيمية لكلا المصطلحين، فالحرب نزاع مسلح بين قوتين بغض النظر عن تكافؤهما ويولد خسائر مادية وضحايا بشرية، في حين يحيل العدل إلى سمة الإنصاف في إحالة إلى ما هو نقيض للظلم.

يبدو أن الحرب العادلة من منظور أنصارها تتخذ لاندلاعها ذريعة أو ذرائع حتى تكتسب المشروعية فهي تقدم بحسب هذا المنظور سندا يقوم إما دفاعا عن النفس أو بغية استرداد حق تم أخذه بالقوة، على حد التعبير القائل أن ما أخذ بالقوة لا يسترجع إلا عن طريقها. كما أنها لا تنفذ بطريقة اعتباطية وإنما وفق قرارات دولية تؤشر على دعمها وتمدها بجملة المبررات القانونية والأخلاقية التي تبرر وجودها، هذا ما يمكن إدراكه من خلال نظرة استقصائية لواقع الحروب المندلعة في عالمنا، حيث يعتبر كل فريق أن حربه عادلة هدفها الأساس لا يتباعد عن إعادة الحق لأصحابه، كما أنها تُبشر بَعديا بعالم خال من الحروب يسوده السلم، المحبة والتطور.

ضمن هذا السياق تسند الحرب العادلة على معيار إجرائي يرتبط بالزمان والمكان ويتعلق بإجراءات وشروط إعلان الحرب، وآخر موضوعي

مرتبط بالمبررات والقرائن المفضية للمشروعية في أن تكون حربا عادلة من عدمها، ثم لا تتعلق المشروعية بالجهة المعلنة للحرب بقدر اعتراف أممي بمشروعيتها، «ومن ثمة لا يجوز وفق قانون الأمم المتحدة القيام بأية عملية عسكرية ما لم يرخص بذلك مجلس الأمن، على الرغم من إمكانية ترجيح المعيار الشكلي على المعيار الموضوعي، عندما يتعلق الأمر بإقرار المشروعية الدولية، دون أن يمنع ذلك حدوث التكامل بين المعيارين. فتكون النتيجة حرب عادلة تتخذ من القوة أساسا للدفاع عن الحق، حيث تم إقرار هذا التسويغ بموجب نص المادة 51 من ميثاق الأمم المتحدة». (العباسي، ك. 2011: 06).

يُعتبر اللجوء إلى الحرب في الفترة المعاصرة أمرا يكتنفه العديد من الإجراءات والخطوات التي تخضع لها الدول حتى يتسنى لحربها أن تكون عادلة، فالسبب وحده لن يكون كافيا ما لم توقع أختام مجلس الأمن على الموافقة، كما أنه من السذاجة والغرور أحيانا على المستوى الينبغياتي أن تعلن حرب خارج حيز مجلس الأمن الدولي فهو الآمر الناهي الذي يمنح الترخيص بقيامها أو منعها مثلما حدث في إعلان الحرب على الكويت حينما اجتاحها العراق عسكريا، إنها ضمن هذا الإطار أشبه بالفكر الكنسي بمنحه صكوك الغفران، والفارق أن الكنيسة كانت تبعث الأمل في نفوس العصاة والمذنبين، بيد أن ما يقوم به مجلس الأمن لا يعدو أحيانا عن كونه خدمة لمصالح وأهداف استراتيجة محبكة التنظيم وليس بدافع الإنسانية والديمقراطية.

والملاحظ أن المدينة المثالية أو الجمهورية كما يسميها أفلاطون Plato (427-473) قد اتسمت بوسم الاستقرار الذي يكاد يخلو من الصراعات

البشرية دون الحديث عن الصراعات الدامية، أما الفيلسوف أبو نصر الفارابي Abū Naṣr al-*Fārāb* (874–950) فيرجح أنه أول الفلاسفة المسلمين الذين تناولوا موضوعة الحرب برؤية فلسفية ضمن إطار مفهوم العدل، حين قسّم الحرب إلى حروب عادلة وأخرى جائرة، فالحرب العادلة في تصوره هي تلك التي تندلع بمبرر الدفاع عن حصون المدينة ضد الهجمات الخارجية، أما الحروب الجائرة والظالمة فهي التي تحركها مصلحة الحاكم الخاصة مثل القوة والشهرة والمجد... كما تحدث عبد الرحمن بن خلدون Abd al-Rahman *ibn Khaldun* (1332،1406) عن موضوعة الحرب العادلة من زاوية مختلفة وذلك بوصفها أمرا طبيعيا يتماهى وطبيعية الإنسان من جهة والعمران البشري من جانب آخر.

لقد تعددت الرؤى لظاهرة الحرب مع كل أمة من الأمم وفي كل عصر من العصور وذلك بغية وضع تحليل لهذه المسألة التي من الواضح أنها افتقرت إلى الكثير من التنظيم والتقنين ولم تخضع إلى الضوابط والآليات الملزمة في ذلك، كما أنها كانت تفتقر إلى الجوهر الذي نعرفه بها اليوم بالرغم من أنها وضعت بعض التشريعات من أجل الحفاظ على النوع الإنساني من جهة، ومن أجل تجسيد القيم الإنسانية من جهة ثانية، لذا من البديهي أن نجد أنفسنا نتساءل قائلين.: هل الحروب العادلة حق إنساني خيّر أم ذريعة للشرور البشرية؟

الحرب العادلة بين الخير والشر:

ينطلق المفكر الفرنسي بيار جوزيف برودون *Pierre-Joseph Proudhon* (1809–1865) في مؤلفه الحرب والسلام في دراسته للحرب

بوصفها فعلا طبيعيا وظاهرة أخلاقية من زاوية اعتبار الحق وليد القوة والعنف. إن كتابه يعمل على إعادة الاعتبار لحق القوة، وبتعبير أدق حق الأقوى، بوصفه حقا واقعيا له من الأهمية والقيمة ما لباقي الحقوق إن لم يكن متفوقا عليها، (Proudhon, J. 1861: 18) مما يعنى في نهاية المطاف «إعادة الاعتبار لمفهوم الحرب، وإعادة بناء مجدها الذي أهمله رجالات القانون والسياسة». (اليعكوبي، ز. 2016: 118- 119).

وفي السياق نفسه، يرى برودون أنه لابد من رد الاعتبار إلى مفهوم الحرب، إذ لا ينبغي أن ينظر إليها بوصفها حالة شاذة أو فعلا غير مرغوب به، حيث وبالرغم مما تحمله من شرور قد تكون حقا أساسيا ومطلبا ضروريا لابد من صونه للحصول على الحق المغتصب الذي ليس ثمة وسيلة من استرداده غير إطلاق شرارتها ومن ثمة الإعلان عن اندلاعها. ضمن هذا المنوال يمتح مبررو الحروب أدلتهم في رؤيتهم «للحرب بأنها ظاهرة مثل بقية الظواهر الإنسانية من عدالة، دين، لغة وكتابة وما إلى ذلك، وبتعبير أدق يشرعن هؤلاء للحرب بوصفها ظاهرة تنتمي إلى الحياة الأخلاقية أكثر من انتمائها للحياة الفيزيائية والعاطفية، لهذا تلعب الحرب وفق هذا المنظور دورا إيجابيا وشرعيا داخل تطور الحضارة والفكر الإنسانين (...) لذا فالحرب وبحسب أنصارها تعد إحدى أشكال الفكر الإنساني كما أنها قانون من قوانين الروح وشرط من شروط الوجود الإنساني».. (اليعكوبي، ز. 2016: 119- 120).

بهذا الشكل والمنطق تبدو الحرب ظاهرة ملتصقة بالوجود الإنساني وخصوصا المجتمعات الحديثة والمعاصرة، فهي متأصلة في الثقافات الإنسانية،

مما يعني بحسب أنصار الحرب العادلة أنها سلوك اجتماعي يهدف أساسا إلى تجاوز مأزق أو تخفيف معاناة، كما أنها قد تعد وسيلة خلاص روحي تجعل الفرد والمجتمع في نهاية المطاف يتحرر من قيود وأرتاج الشر المحض. لقد سار الفيلسوف الأمريكي المعاصر مايكل وولتزر *Michael Walzer* على الخط نفسه الذي سار عليه مفكرو الحرب العادلة، إذ يقر أنها عنف مشروع تقوم به الدولة الشرعية الديمقراطية، كما يؤكد على أن قواعدها مشتقة من المعايير القانونية ومنسجمة معها، زيادة على انسجامها واتساقها مع الأفكار الدينية والفلسفية، والشرائع الأخلاقية التي تتماهى مع فكرة العدالة، زيادة على مختلف الاتفاقات المعاهدات التي تتبنى محاربة الشر المحض، الأمر الذي يجعله تقليدا يتأسس على ضوابط يتبناها المجتمع الدولي بأكمله. (حمدي، ش. 2011: 03).

يظهر جليا أن وولتزر يقف في صف دعاة الحرب العادلة حيث يعتبرها نابعة من تلك المواثيق الأخلاقية، فهي انعكاس لجملة الأفكار الفلسفية والدينية، ومن هذا الأساس فهي مشروع أو نموذج إرشادي كوني اتفقت البشرية على حضوره من خلال منحه الشرعية القانوني، وفق ما سماه وولتزر ب: «الأنموذج المشروع Legalist Paradigm» بوصفه ملمحا أو منوالا نقيس ونبرر من خلاله مشروعية الحرب. وهو التصور الذي يقع في منزلة بين المنزلتين بين مذهب المسالمة الذي ينكر هذه الفكرة، وبين مذهب العنف اللا محدود الذي يرى الحرب ضرورة وتعبيرا ملحا وبليغا لمختلف الصراعات التي قد تبررها الحسابات الشخصية للدول والمصالح القومية في القوَّة والأمن والموارد الطبيعية والنمو الاقتصادي. (حمدي، ش. 2011: 04).

وبمقابل ذلك، ثمة إقرار بأن الحرب العادلة ليست مثالية وإن اكتسبت الشرعية والطابع الأخلاقي، حيث تظل تعكس التعنت الفردي التذاوتي للمصالح الاقتصادية والمنافع التي قد تنجر من قِبل حصولها فهي مكسب حقيقي في نظر الزعماء السياسين والقادة العسكرين، إنها استراتيجة محبكة بخيوط تلف حبالها على جميع الأصعدة وضمن مختلف الاتجاهات لتحقق ما قد يعجز عنه السلم.

وفي هذا الإطار نجد جون كلود ريانو بوربالان *Jean-Claude Ruano-Borbalan* يتساءل قائلا: هل ثمة حروب عادلة؟ مجيبا عن التصور العام لكتاب مايكل والزر *Michael Walzer* الحروب العادلة وغير العادلة، كما يتحدث عن «وجود لوحة تذكارية بخليج وستمنسستر (Westminster) بلندن، هذه اللوحة تحوي أسماء كل قادة الطائرات المقاتلة الذين سقطوا في المعارك أثناء الحرب العالمية الثانية، بينما لا توجد أية لوحة بأسماء طياري الطائرات المقنبلة الذين سيبقون دائما مجهولي الهوية نظرا لحجم الخسائر المرتفعة المسجلة في صفوفهم، لأن الأوائل يقاتلون وفق قواعد الحرب بينما كان الآخرون يخوضون نوعا من القتال يطرح قضية أخلاقية خطيرة لكل كائن بشري: الواقع أنهم شاركوا بطريقة مباشرة في إبادة مدنين أبرياء.» (دورتي، ج.ف. 2008: 226).

والواقع أننا نستشف وراء هذا المثال بعدا مزدوجا يحملنا إلى القول بأن ما قد أعتقد بأنه حرب عادلة قد ينظر إليه بأنه قتال وعنف، وهو يبتعد عن كل سمات العدالة في حين قد يرى الطرف الآخر بأن حربه عادلة تحمل الخير وتطمح إلى نزع الشر، هذا من جهة ومن جهة أخرى يمكن القول بأن من يملك

شرعية الحرب العادلة فهو من يستحق التخليد، أما من يقاتل دون حصول هذه الشرعية فهو خارج عن القانون الإنساني والأخلاقي أيضا.

وفي السياق نفسه يؤكد الفيلسوف السويسري إمر دو فاتيل Emer de *Vattel* (1714-1767) بأن الحرب سعي حثيث لتحصيل الحقوق واستردادها بما يعادلها من عنف، وهي عمل مشروع بالنظر إلى الحق الطبيعي وحق الأمم، فمن حق كل شخص، فردا كان أو جماعة الدفاع عن نفسه وحقوقه، غير أنه يؤكد أنه ليس حقا مطلقا، بل حقا مقيدا بثلاثة قيود صارمة، تتمثل في السبب الموضوعي والعادل، والغاية الشريفة المتعلقة بمصلحة الدولة والمواطن، زيادة على عنصر الاضطرار والمتمثل في استنفاذ مختلف أساليب التحاور والتواصل والمفاوضات السلمية. (اليعكوبي، ز. 2016: 176).

هكذا يبدو أنه من الواضح أن الحرب العادلة تختلف في استراتيجيتها عن الحرب التقليدية فلا بد من توفر شروط: تتعلق أساس بشرعية الدولة المعلنة للحرب، زيادة على السبب العادل والدافع الشريف والموضوعي والاضطرار حتى يتم الإعلان عن قيام حرب ما، ذلك لأنه وفي الوقت الراهن أصبح الخضوع بارزا لآليات تنظيمية دولية، وأضحى المجتمع الإنساني يُسيَر أو يَسِير وفق مبادئ وقوانين تنظم علاقاته الكونية ككل. وفي السياق نفسه يدافع الفيلسوف السياسي الألماني كارل شميث Carl *Schmitt* (1888،1985) بشكل عام في كتابه «ناموس الأرض» The Nomos of the Earth عن أطروحة مفادها أننا نحن سكان العالم قد دخلنا عهد الحرب الشاملة، اللامتكافئة، الحرب التمييزية بقيادة القوى العظمى، وهي حرب إبادة لا تخضع لضوابط إنسانية ولا لتشريعات قانونية حقة، بيد أنه يتم الترويج باسم

الإنسانية والقانون لتتمظهر على أنها حرب عادلة. (اليعكوبي، ز. 2016: 182).

من هنا فلا عجب من القول بأننا نقف في الوقت الراهن أمام ملامح تجسد الحرب العادلة التي هي حقيقة مؤكدة وبالأخص مع موجات الحروب التي عرفتها وتعرفها الكثير من البلدان، والتي عُبر عنها بأنها حرب إنسانية تهدف القضاء على شر محض-بتعبير بول ريكور-يتربص بالوجود، حيث تعد الحل الوحيد لبعدية حصول البشرية على نعمة السلام والأمن، وهذا من خلال الإشهار أحيانا للترويج الكاذب الذي يزعم أن دولا معينة تمتلك من أسلحة الدمار الشامل ما يزعزع الأمن الإنساني، إنه تصور يوحي للأذهان بأن الخطر لا يقبع وراء هذه الحرب وإنما الخطر الحقيقي هو تلك البلدان المالكة للأسلحة المدمرة...!

يقول عالم الاجتماع والفيلسوف الفرنسي جان بودريار Jean Baudrillard (1929-2007): «لم تكن هذه الحرب (حرب الخليج) العسكرية حقيقية. لقد كانت حربا بهدف التضليل أو تضليلا بهدف الحرب، ومارس الأمريكيون الحرب نفسها على الرأي العام عبر وسائل الرقابة والإعلام. هكذا تبدو المعادلة صنع العدو، وإقصاء الآخر لأنه صورته، وحمل لواء الخلاص والتحرر ذلك ما شكل معنى الحق في الردع، إنها لعبة وحرب المصطنعات، وذلك ما كانت عليه حرب الخليج، لقد كانت حربا بلا نتيجة لكنها بالتأكيد كانت مؤثرة.» (بودريار، ج. 2006: 43- 44). لذلك ليست الحرب هي الفعل العدواني العسكري فحسب، بل أنها تحيل أيضا إلى الحرب النفسية بحكم التضليل الوهمي الذي تقوم به وسائل الدعاية، هذا ما جسده

بودريار من خلال تقديمه لقراءة حرب الخليج فلطالما نحن نعيش مرحلة من أشكال الاصطناع والتوهم الذي يصبو إلى تحقيق أهداف ومصالح سياسية. وكما قال الجنرال والمؤرخ الحربي البروسي كارل فون كلاوز فييتز Carl von Clausewitz (1780-1831) : «إن الحرب هي استمرار للسياسية بوسائل مختلفة، والسياسيون هم من يشنون الحرب وسياستهم هي التي تسببها.» (كلاوزفيتز، ك. ف. 1980: 730).

الحرب العادلة وأخلاقيات السلم:

لا يخلو الحديث في جميع أصقاع العالم بأسره عن ما ينشده الإنسان من تحقيق سلام أبدي، هذا السلام الذي سوف يخلصه من شبح الدمار والهلاك الذي ألحقته الأسلحة النووية به حلم ظل يقبع في غياهب هذا الوجود. وهو سلام «من شأنه أن يحرر مستقبل الإنسانية من عنائها الأكبر الناجم عن التطور السريع الذي أحرزته صناعة الأسلحة الفتاكة، فغدت تهدد الوجود البشري على الإطلاق.» (بلكفيف، س. 2014: 117).

في القرن السادس قبل الميلاد قام الفيلسوف الصينى لاوتسي Laozi (604ق.م- 530 ق. م) بتأطير نزوع فلسفي يرى في الدنيا مصدرا للموبقات والشرور، ويعد واحدا من فلاسفة الطاوية بوصفها مدرسة فلسفية وروحية تدعو إلى اللين والتسامح، بدل الصراع والحروب، يقول لاوتسي:

«السلام يسهل الحفاظ عليه

والمصائب يمكن منعها قبل أن تبدأ.

عالجها قبل أن تقع، عالجها قبل أن تنفرط.

من يفعل يخسر الهدف

من يمسك يضيع والحكيم لا يفعل فلا يخسر ولا يمسك فلا يضيع.

فالطاوية تسعى نحو الجوهر الحقيقي من الوجود وتناضل من أجل القضاء على العبودية بكل أشكالها.» (كرسون، أ. 2009: 15- 16).

والواقع أن «أمنية السلام» شكلت هدفا ومطمحا إنسانيا صرفا راود البشر منذ العهود السحيقة حينما أدركوا أهوال الحرب ونتائجها الوخيمة، فكان الشوق والتوق لتحقيق هذه الأمنية عما وعارما، بيد أن الفشل في تجسيده واقع في كل الأحوال والأزمان كان عاما وعارما من حيث مؤثراته ونتائجه السلبية التي تنعكس على الجميع. وقصة سعي الإنسان والمجتمعات نحو السلام طويلة وقديمة إذ يذكر المؤرخون أن البشرية حاولت إقامة سلام دائم بين الدول منذ فجر التاريخ، «فقد جاء في أقدم معاهدة تحالف أبرمها فرعون مصر رمسيس الثاني مع الحثيين،(في جنوب الأناضول) ويرجع تاريخها إلى القرن الثالث قبل الميلاد، والملاحظ أن المبدأ الأول الذي يتفق عليه الطرفان هو إقامة سلام دائم بين الدولتين. غير أن هذا المبدأ لم يمنع الحروب المتصلة التي كانت تشتعل بين الحين والحين فتغمر المنطقة بأسرها من الاستمرار بعد توقيع المعاهدة.»! (إمام، ع. إ. 2007: 93).

إن التاريخ أكبر شاهد على مطالبة الإنسان بهذا المبدأ الاتيقي الراقي إنه السلام، لقد ناشدته الإنسانية وبإلحاح لنلحظ أنه تمظهر في شكل اتفاقيات

ومعاهدات أبرمت بين الدول منها ما وجدناه مدونا ومنها مالم يتم ذكره، ذلك إنما هو تأكيد على سعي الأفراد لترسيخ أخلاقيات السلم والتواصل.

وانطلاقا من التصور الاستشرافي في بعده الأخلاقي والحضاري، يحضر الفيلسوف الألماني الشهير إيمانويل كانط Immanuel *Kant* (1724-1804) من خلال كتابه الموسوم «نحو السلام الدائم» حيث يتوجه من خلال تصور إنساني- عالمي إلى تبني تشريع لسلام كوني وأبدي لا مكان فيه للحروب، ويدلل على طرحه بالحاجة الماسة للجنس البشري بوصفه الجنس الراقي عقلا إلى تجسيد الكمال الأخلاقي الأقصى للإنسانية، وهو السلام الأبدي. (Reiss, *H. S. 1991:* 174).

من الواضح أن الحديث عن سلام أبدي خلق نقاشا واسع النطاق مما جعل الكثير من المفكرين والفلاسفة وعلى رأسهم إيمانويل كانط الإشادة الدائمة بالسلام وأهميته من خلال مختلف أرائه الفكرية والفلسفية المدونة ضمن العديد من مؤلفاته باعتباره أن خلاص البشرية من الحروب التدميرية لا يكون إلا بإحلال سلام أبدي وهذا بدوره لن يتجسد إلا من خلال الالتزام بالأخلاق الإنسانية، فهي وحدها الكفيلة بذلك.

انطلاقا من ذلك يمكن القول: إن كانط إنسان مفرط أو بالأحرى عميق في إنسانيته،- هنا استعرنا عنوانا لفريديريك نيتشه بمقصود مغاير- فهو يعلي من شأن الإنسان، ويرى في عقله وطابعه الأخلاقي ضمانا لمشروعية الأمن والسلام، لذلك يتصور مسألة السلام بوصفها إشكالية أخلاقية بالأساس، ومادام الغرض سلاما أبديا فإن الشرط لا يتباعد عن تربية

أخلاقية مستمرة تعلي من شأن العقل وتحتفي بالإنسان وتراه منطلقا ومقصدا، لذلك لا مندوحة عن تأصيل مستمر لاتيقا التواصل بين الأفراد والمجتمعات حتى في حالة الحروب. (إمام،ع. إ. 2007: 118).

في مقابل ما ذهب إليه كانط تعالت العديد من الأصوات معبرة عن وجوب المطالبة بسلام عالمي واحتشدت العديد من الجماهير للتنديد بالرفض الصريح الأعمال الإجرامية الناجمة عن فعل الحروب والتي بدورها تنعكس سلبا على جميع الكائنات الموجودة في العالم بما فيها الإنسان، بل وخصوصا الإنسان. ومثال ذلك حينما أسس نعوم تشومسكي *Noam Chomsky* مع كثير من المواطنين، المفكرين والفنانين تحالفا سمي «ليس بإسمنا» بغرض رفض الحرب واستنكار مختلف أشكال الدمار التي يروج لها باسم الحرب العادلة وكذا باسم نشر الديمقراطية وحقوق الإنسان. (مامير، ن. وباتريك ف. 2003: 229).

إن تصور كانط للسلام ومن ثمة درء الحرب يحيل إلى ضرورة استحقاق السلام، الذي تتم رؤيته من زوايا ثلاث: الأولى :يتفق والحكمة التقليدية القائلة،إذا أردنا السلام علينا الإعداد للحرب...والثانية :إذا أردنا السلام علينا الإعداد لمنع الحرب، وتبقى الزاوية الثالثة أنه إذا أردنا السلام علينا أن نجعل الحرب مستحيلة، بيد أن هذه اللوائح بإمكانها الاصطدام مع السؤال الملحاح التالي: كيف يمكن لسلام أن يبقى مرغوبا في ظل استمرار حالات عديدة من العنف والإرهاب والمجاعات والظلم الاقتصادي والاجتماعي.؟ (حسن خليفة، ف. 2001: 06). بمقابل ذلك فإن الإعداد الايجابي من أجل السلام في الفلسفة النقدية يتحدد بأمرين اثنين: الأول:

ترسيخ السلام بوصفه واجبا دينيا وأخلاقيا، في حين يتمحور الأمر الثاني على نقد كل مثيرات الحرب من حياة البشرية وبشكل خاص اللاهوت النظري واللاهوت التاريخي. (حسن خليفة، ف. 2001: 06).

وبناءً على ما سبق، يتضح أن التفسير الايجابي لحدوث السلم يتحقق في نظر كانط انطلاقا من علاقته بالجانب الديني الأخلاقي، فالارتباك الوثيق بين الدين والأخلاق إن تصور كانط للسلام ومن ثمة درء الحرب يحيل إلى ضرورة استحقاق السلام، الذي تتم رؤيته من زوايا ثلاث السماوية من نبذ الدعوة الى العنف والكراهية وإحلال التعاون والسلام والتآخي محل التطاحن والتنافر.

ومثال ذلك مؤتمر شيكاغو للتسامح الذي انعقد سنة 1993 وتضمن إصدار بيان يتمثل في إعلان من أجل أخلاق عالمية وقد تكفل عالم اللاهوت الكاثوليكي هانز كونغ بتحرير البيان ومن بين مبادئه التي تم الإعلان عنها ضرورة وجوب أخلاق كونية زيادة على مطلب المعاملة الإنسانية الحسنة بين البشر والالتزام بثقافة التسامح والتغيير الايجابي، مع ضرورة الالتزام بثقافة التضامن والنظام الاقتصادي العادل. (بن ميسي، ز. 2014: 334، 335).

إذن، لقد اتضح مما سبق أن الأمر يحتاج بالدرجة الأولى وقبل كل شيء إلى تغير عميق في القيم والأفكار والعمل السياسي والمؤسسات على مستوى دول العالم كافة، فليس دليلا أن معيار تحقق السلام هو في غياب الحروب، وهذا مدلول ليس دقيقا لأن ثمة صراعات كامنة دائمة، كما أن الأسباب والأدوات المؤدية إلى حروب طاحنة متوافرة في ظل غياب دائم

للعدالة الدولية وفي ظل انتشار الأسلحة الفتاكة، وفي ظل تكريس حاد للصدامات والنزاعات الإثنية والثقافية. (كريدية، م. 2017: 103- 104).

في ظل هذه الرؤية تتمظهر العلاقات الانفعالية العدوانية للوجود البشري، من خلال نزاعات وحروب تشكلت عبر العالم وفي مختلف الحقب الزمنية، فما أحوج الإنسانية اليوم إلى سلام يخلصها من هذه الصراعات، ذلك أننا مطالبون بالحفاظ على نواميس هذا الكون بمساهمة فعلية في احتواء جميع الفروقات والاختلافات الحضارية والعرقية والدينية والإيديولوجية، لندرك بأن حديثنا عن ما أسميناه بالحرب العادلة رؤية ونظرية تحتاج لمزيد من التعمق حتى لا تكون مبررا لشن الحروب.

خاتمة

أخيرا، يمكننا القول بأن الحديث عن خطاب الحرب العادلة يفتح المجال للعديد من المساءلات التي تشكل نسقا فكريا إلى جانب زخم من الخطابات المعاصرة التي أضحت مثقلة بحمولات فلسفية ومضامين أيديولوجية وصياغات متعددة، ولنا أيضا أن نجدد تساؤلاتنا الملحاحة التي تنآى الإجابات الحقيقية عن تبريرها، ومن ثمة نعيد الإشكال القديم الجديد: هل من الحقيقة أن ننعت جميع الحروب التي قامت بها الإنسانية بالعادلة؟

يبدو في نهاية المطاف أن الخوض في مسألة الحرب العادلة يجعلنا نغوص في أعماق النفس البشرية وما يعتريها من غموض ويكتنفها من تناقض مزدوج بين الخير والشر، بين الضار والنافع بين ما يجعل من الحرب عادلة وحرب أخرى لا عدالة فيها، إننا نعود القهقرى ونخطى متسارعة إلى تلك

العصور اليونانية القديمة من خلال التوجه السوفسطائي الذي يرى بأن الإنسان مقياس الأشياء جميعا ما يوجد منها وما لا يوجد، فما يراه خيرا هو كذلك وما يراه شرا هو حقيقته المؤكدة التي لا نزاع حولها.

المراجع:

1-إمام عبد الفتاح، إمام. (2007). **دراسات في الفلسفة السياسية عند هيجل**، دط، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.

2- بلكفيف، سمير. (2014). **التفكير مع كانط ضد كانط**، ط1، بيروت: منشورات ضفاف.

3- بن ميسي، زبيدة وآخرون. (2014) **الفلسفة وسؤال المستقبل**، أعمال مؤتمر، ط1، الجزائر: إصدارات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية.

4- بوديار، جان، (2006). **الفكر الجذري ،أطروحة موت الواقع**، تر: منير الحجوجي وأحمد القصوار، ط1، الدار البيضاء: دار توبقال.

5- حسن خليفة، فريال. (2001). **الدين والسلام عند كانط**، ط1، القاهرة: العربية للنشر والتوزيع.

6- حمدي، الشريف. (2016). **نظرية الحرب العادلة بين اليوتوبيا والايديولوجي**، بحث محكم، الرباط: منشورات مؤمنون بلا حدود، للدراسات والأبحاث.

7- حمدي، الشريف. (2011). **مفهوم الحرب العادلة عند مايكل وولتزر**، جامعة سوهاج كلية الآداب: مقال منشور، منشورات المؤتمر العلمي الثاني للباحثين الشباب.

8 - دورتي، جان فرانسوا. (2011). ،**فلسفات عصرنا ،تياراتها ،مذاهبها أعلامها وقضاياها** ،تر: إبراهيم صحراوي، بيروت، الجزائر: الدار العربية للعلوم ناشرون ،منشورات الاختلاف.

9- رفقة، رعد خليل. (2015). **فلسفة الحرب في ماهية الحرب ومسوغاتها**، ط1، بيروت: دار الروافد الثقافية ناشرون.

10- كرسون، أندريه. (2009). **الفلاسفة والأخلاق**، تر: عبد الحليم محمود، وأبو بكر زكري، دمشق: ، دار العرب ، للدراسات والنشر والترجمة.

11-العباسي، كهينة. (2011). **المفهوم الحديث للحرب العادلة**، أطروحة ماجستير غير منشورة في القانون العام، إشراف تاجر محمد، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر.

12- العسلي، بسام. (1979). **الحرب والحضارة**، ط1، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

13- فرنر، فيكتور. (1980). **الحرب العالمية الثانية**، تر: هيثم الكيلاني، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

14- فون كلاوزفيتز، كارل. (1980). **فن الحرب**، تر: أكرم ديري والهيثم الأيوبي، ط2، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

15- فيشر، ديفيد. (2014). **الأخلاقيات والحرب**، تر: عماد عواد، الكويت: منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

16- كريدية، مروان. (2017). **رهانات السلام أسئلة العنف وأفاق الكون**، القاهرة: دار العين للنشر.

17-مامير، نويل وباتريك فاربيار. (2003). **خطورة أمريكا**، تر: ميشال كرم، ط1، بيروت: دار الفرابي.

18- اليعكوبي، زهير. (2016). **الحرب مقاربة فلسفية سياسية، ط1، بيروت:** منشورات ضفاف.

19- Proudhon, Pierre-Joseph. (1861). **La Guère et la Paix**, 3 Edition, Paris: Collection Hetzel.

20- Reiss, H. S. (1991). **Kant: Political Writings**, Cambridge, UK: Cambridge University Press.

للإحالة على هذا المقال:

ـ بشير خليفي، عشاب فطيمة الزهرة، (2018)، « هل يمكن الحديث عن حرب عادلة؟»، **المواقف**، المجلد: 13، العدد: 01، جوان 2018، ص. ص.67-87 .